٢ . ١٨

فتح الكبيرة والصغار الذين ركبوها وصغروها

كنا بين الأوائل الذين عاصروا نشأة فتح وقرؤوا بلاغها الأول عام ١٩٦٥ والذين أعجبوا بطلعتها وبانتهاجها نهج الفعل بدلا من نهج القول دون فعل . وكانت معرفتي الشخصية بقادتها باعثا لي على حسن الظن بها وتعليق الآمال عليها لا سيما الشهيد خليل الوزير الذي شاءت الأقدار أن نتزامل في صف واحد ونتصادق في مدرسة الإمام الشافعي ثم مدرسة فلسطين بغزة بل وأن نتقاسم الرؤى والأفكار والميول في معظم صبانا المبكر. وقد تعاطفت مع فتح قلبيا وأنا ضابط في جيش التحرير في الوقت الذي كانت الدعايات تصفها بكل وصف أسود . وأعتقد أن الشارع السياسي الفلسطيني عموما يتأثر عكسيا بالدعايات التي تهاجم أصحاب نهج المقاومة في أي حين . فيحب أولئك الذين تريد الدعايات أن تجعلهم مكروهين ويثق بهم ولو أرادت الدعايات أن تلقي عليهم ظلال الشك والريبة . كذلك كان الحال مع فتح في مطالعها لأنها كانت ردا من روح الشعب على نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وعلى نكسة حزيران عام ١٩٦٧ . ولم تتمايز فتح عند انطلاقتها بنظرية فكرية . وإنما كان قطب الجذب فيها رجالها القياديين من ناحية ونهجها العملي المقاوم من ناحية أخرى .

وكانت غالبية القياديين في فتح تشبه خليل الوزير كثيرا أو قليلا . وقد عرفت في الإمام الشافعي الشاعر الثائر عبد الفتاح حمود بخفة ظله وصراحته وحماسه الملتهب ، وعرفت الشهيد كمال عدوان بجديته وتجهمه وشجاعته

الأدبية ، وعرفت سليم الزعنون القانوني المتأدب المهذب ، ثم شاءت الأقدار أن أعرف في رابطة الطلاب الفلسطينيين في القاهرة الزعيم القائد الشهيد ياسر عرفات والزعيم القائد الشهيد صلاح خلف والديبلوماسي بطبعه فاروق القدومي . وعرفت آخرين من اتجاهات أخرى ومشارب أخرى .

وعندما أسست هذه العصبة من الشباب الفلسطيني الذين نشؤوا نشأة دينية في بداياتهم حركة فتح فقد كانوا جميعا يعملون في الخليج ، ما بين السعودية والكويت وقطر . وقد تركوا أعمالهم ووظائفهم ومرتباتهم العالية وجاؤوا بمدخراتهم الشخصية وانخرطوا في تأسيس فتح وتدريب كوادرها الأوائل في الجزائر . وبنوا قاعدتهم العملياتية وتجذروا في مخيمات سوريا . وباشروا أولى عملياتهم في الوطن المحتل ، وذلك كله قبل أن تنشب حرب حزيران عام ١٩٦٧ .

كانت هذه البادرة من قبلهم مغامرة غير مأمونة من وجهة نظر مادية . ولكنها كانت في الحقيقة اختبار الصدق الأولي لكل رائد يفتتح طريقا جديدا ولا يبالي بالروح يبذلها من أجل فوز فكرته ومبدئه .

ولقد كبر كل واحد من هؤلاء القادة يوما بعد يوم من خلال جهد الأيام والليالي وخدمة الحركة في شتى مجالات العمل . وصار لكل واحد منهم سجل مزدحم بشتى التضحيات . وكانوا كبارا بكل معنى الكلمة . وكانت حركتهم كبيرة بما استوعبت من أهداف الشعب ومن شرائحه المختلفة وكان قلبها كبيرا وأحلامها كبيرة .

حتى انتقلت الحركة نقلتها النوعية من الخارج إلى داخل الوطن بموجب تسوية مؤقتة ذات اشتراطات دولية لا تطابق منطلقات فتح الأولى ولا أهدافها الصريحة .

ولم يكن كثيرون منا مرتاحين إلى هذه النقلة . ولكن البداهة نفسها كانت تنضم بقوة لخيار العودة للبلد . وكانت هناك أجيال تعلقت حياتها بفتح والفصائل ولم يكن بوسعها إلا أن تلحق بها حيث تكون .

كان ياسر عرفات قائدا مميزا . وكان وراء كل عضو من أعضاء اللجنة المركزية تاريخ طويل في الحركة وسجل كبير يضم إنجازاته في كل ميدان عمل فيه : عسكريا وسياسيا وتنظيميا . وما من أحد مقدس ولا منزه ولا فوق النقد . ولكن عمر الشيخوخة وسبق التضحية أوجبت دائما حفظ الاحترام والاحتشام لهم واللجوء إلى النظام الداخلي للحركة بغية تغييرهم وإحلال آخرين محلهم .

حتى برزت ظاهرة دحلان وشركاه (والبعض يسميهم تيار دحلان !) . وهم . فيما عدا عبد العزيز شاهين . كانوا من كوادر الأمن الوقائي الذي شكله دحلان على عجل حين تقرر قيام السلطة الفلسطينية وإيجاد ستة فروع (من وحدة متكاملة من الشرطة تحت سيطرة المجلس . على حد تعبير الفقرة ٢ من المادة الرابعة من الاتفاقية الإسرائيلية الفلسطينية المرحلية .) :(١) الشرطة المدنية (٢) الأمن العام (٣) الأمن الوقائي (٤) أمن الرئاسة (٥) المخابرات (٦) خدمات الطوارئ والنجدة أي الدفاع المدني.

ولغرض في نفس يعقوب عين الرئيس ياسر عرفات محمد دحلان على رأس جهاز الأمن الوقائي في قطاع غزة . وعين اللواء مصباح صقر مديرا عاما

للأمن الوقائي كله في الضفة والقطاع وجبريل الرجوب على رأس الأمن الوقائي في الضفة الغربية .

ولم تكن الاختصاصات موزعة على نحو مفهوم بين الأجهزة الأمنية المذكورة . ولم تكن أسماء مثل دحلان معروفة على نطاق واسع إلا أن همسات ترددت سابقا عن أن له علاقة باغتيال كل من الشهيد أسعد الصفطاوي والشهيد محمد أبوشعبان والشهيد ماهر كحيل . وللم يمض وقت قصير حتى بدأت الاعتقالات تتوالى بين صفوف حماس والجهاد وأمثالهم . وبدأنا نسمع القصص عن التعذيب المخجل الذي يمارس بحق المسجونين . وكنت في ذلك الحين قاضيا جديدا في المحكمة العليا . ولم تستطع محكمتنا العليا أن تخلي سبيل الموقوفين الذين ألقي القبض عليهم دون تهمة مبينة وأبقوا في السجن رغم أوامر الإفراج التي أرسلناها إلى السجون دون مراعاة لأصول التوقيف ولمهله القانونية .وعندما انتقلت إلى المجلس التشريعي بعد انتخابات ١٩٩٦ شرعت الأجهزة الأمنية كلها على الإطلاق بما فيها الدفاع المدني تعتقل أعدادا كبيرة من أفراد حماس والجهاد . وهنا لمع اسم دحلان وجهازه بوصفه أشد الأجهزة وطأة على المعتقلين وتعذيبا وإساءة معاملة لهم . وكنا . نحن أعضاء المجلس التشريعي . عموما غاضبين لهذا الذي يحدث . فقد هرع أهالي المعتقلين إلينا مستغيثين . وكانت استغاثات الأمهات والزوجات تدمي القلب . وقد بادرت إلى دعوة بعض أعضاء المجلس للاجتماع في بيتي إذ كنت نائب رئيس المجلس واقترحت على الحكومة أن تتقدم للمجلس بمشروع تعديل لقانون العقوبات القائم بحيث ينظر المجلس التشريعي فيه ولا يكون ثمة توقيف إلا بناء على مادة قانونية .

والواقع أننا كنا نعرف ان الآمر الأعلى بالاعتقالات هو الرئيس نفسه . ولكننا كنا نفهم أن أي كادر أمني سبق له أن كان مناضلا يجب عليه أن يتجنب تعذيب المناضلين مهما كان الأمر . وبدأ يترامى إلى أسماعنا ذكر (التنسيق الأمني) ، والدور الرئيسي فيه لدحلان وأمنه الوقائي . ومعنى ذلك الاجتماع مع الإسرائيليين بغرض تبادل المعلومات معهم . ولم يكن لذلك معنى على الإطلاق إلا الوشاية بأبناء شعبنا . وقد قلت ذلك جهرا في قاعة المجلس التشريعي بغزة .

بالإضافة لذلك برز اسم دحلان وشركاه بوصفهم مسؤولين عن المعابر التجارية (كارني و صوفا) وتحدثت أوساط التجار عن احتكارهم مواد البناء والمواد التموينية وعن شراء أراض قرب معبر كارني لتخزين المواد فيها كما تحدثوا عن احتكارهم الشركة التي تقوم بخدمات الحمل والنقل داخل المعابر . ولما كان قطاع غزة قد شهد حركة عمران قوية في بداياتعهد السلطة الوطنية فإن أرباح تلك الاحتكارات تقدر بالملايين . وبدأنا نسمع عن سلسلة شركات مقاولات وشراء ممتلكات وخلافه .

ولقد رفعنا شعار الإصلاح عندما أصبحت مثل هذه القصص وغيرها تتردد على الأسماع وبدأت الروائح تزكم الأنوف ، فإذا بهؤلاء الذين كان الإصلاح يتطلب ويقتضي إبعادهم عن السلطة وعن حركة فتح يتكلمون كلاما فحواه أنهم قادة الإصلاح وحماماته البيضاء .

هذا هو كل ما سمعناه عن هذه الشخصيات التي تزايد على اللجنة المركزية فلم نفهم بأي مبرر وأية ذريعة يداخلهم الطمع في الحلول محل القيادات الأكبر . هذا مع أنني أراها القصور بعينه والجمود بعينه ولو كانت فيها بقايا

همة وجرأة لقدمت هؤلاء جميعا للمحاكمة منذ زمن . ولكنني أخشى أن الذين يحولون دون ذلك يخشون أن يمسهم شيء من التهم الموجهة للآخرين !

إن المعركة الواسعة على مستوى العالم العربي والإسلامي الذي يدعونه الشرق الأوسط تعج بالمخططات الأمريكية وبالرجال وبالصبية الذين اختارتهم أمريكا للعب أدوار ضد مصالح شعوبهم . والآن على أبواب انعقاد المؤتمر العام السادس لحركة فتح : هل ينعقد هذا المؤتمر وسط هذه الثنائية الفريدة : دحلان وربعه من ناحية وشظايا اللجنة المركزية من ناحية أخرى ؟! فإذا كان ذلك هو المشهد الفتحاوي فأي مستقبل يكون للحركة ؟ وهل يعي الغيورون الباقون أن الوفاء لحركتهم يتطلب وقفة غير مسبوقة في هذه الفرصة الأخيرة لإعادة الأكسجين لرئتي فتح .